With thanks to the Schimmel Family for their generous sponsorship of Covenant & Conversation, dedicated in loving memory of Harry (Chaim) Schimmel.

The translation to Arabic was made possible through the generous funding of The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism and the generous donation of Mr. Myron Joshua from Kfar Etzion.

"حَيِّ ساره" هو النصّ الأسبوعي الخامِس من كتاب "بريشِيت" (سِفر التكوين) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الأولى من المَقطع الثالثِ والعشرين وينتهي بالآية الثامنة عشرة من المَقطع الخامِس والعشرين.

بِدَايَةُ الرِّحْلَةِ

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

منذ فترة، نشرتْ صحيفة "التايمز" (The Times) البريطانيّة مقابلةً مع أحد أبرز أعضاء المجتمع اليهودي في بريطانيا، وهو عضوٌ أيضًا في مجلس اللوردات، وذلك بمناسبة عيد ميلاده الثاني والتسعين. قال له الصحفيّ: "معظم الناس عندما يبلغون الثانية والتسعين يبدؤون بالتخفيف من وتيرة حياتهم، لكنّك تبدو وكأنّ حياتك تزداد نشاطًا وسرعةً. فما السرّ؟"، فأجابه اللورد قائلًا: "حين تبلغ الثانية والتسعين، تشعر وكأنّ باب حياتك على وشك أن يُغلق في أي لحظة، وهناك الكثير ممّا أرغب في إنجازه قبل أن يُغلق ذلك الباب. ولهذا، فكلّما تقدّمتُ في السنّ، كان عليّ أن أعمل بجهدٍ أكبر".

إنّ كلام اللورد يترك فينا أثرًا يُشبه ذلك الذي يتركه نصّ "حَيِّ ساره"، الذي نقرأ فيه عن أفْرهام/إبراهيم بعد وفاة زوجته ساره، شريكة دربه الثابتة، ورفيقته التي سارت معه في كلّ أبعاد رحلته الحياتيّة والروحيّة، عندما كان يبلغ من العمر مائة وسبعةً وثلاثين عامًا. فبعد أن يبكي وينوح على وفاتها، كما يخبرنا النصّ التوراتيّ، لا يلبث أن ينهض للعمل، فينخرط في مفاوضاتٍ صعبةٍ لشراء قطعة أرض لدفنها فيها. ويَظْهَرُ جَليًّا في النصّ التوراتيّ أنّ هذه المهمّة لم تكن سهلةً على الإطلاق. فكما ورد في الآية الرابعة من المقطع الثالث والعشرين من سفر التكوين، يقول أفْرهام لسكان المنطقة الحيثيّين: "أَنَا غَرِيبٌ أَوْ ضَيْفٌ، مَعَكُمْ، أَعْطُونِي حَوْزَ قَبْرٍ مَعَكُمْ، وَأَدْفِنُ مَيِّتِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ"، أي أنّه يُدرك تمامًا أنّه لا يملك الحقَّ في شراء أرضٍ هناك، وأنّ عليه الحصول على تنازلٍ خاصّ منهم لتحقيق ذلك.

وفي بداية الحوار، حاول الحيثيون، بلُطفٍ لا يخلو من الحزم، أن يُثنوه عن عزمه. فكما ورد في الآية السادسة من المقطع الثالث والعشرين من سفر التكوين، فقد قالوا له: "... كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا، لَا يَبْخَلُ عَلَيْكَ بِقَبْرٍ لَهُ أَنْ تَدْفِنَ فِيهِ مَيْتَكَ"، وهو تلميحٌ منهم بأنّ لا حاجة له إلى شراء أرضٍ، إذ بإمكانه الاكتفاء بدفن زوجته في أحد قبورهم. لكنّ أفْرهام يؤكّد لهم،

بلطفٍ مماثلٍ وبإصرارٍ لا يقلّ عن إصرارهم، أنّه مصمّمٌ على شراء قطعة أرضٍ تكون مِلكَهُ بشكلٍ كامل. وفي نهاية هذه المفاوضات، يدفع أفرهام سعرًا مبالغًا فيه، وهو أربعمئة شاقلٍ من الفضّة، للحصول على قطعة الأرض.

وقد كان لشراء مغارة المخپيلة/المَكْفيلة (الحرم الإبراهيمي تبعًا للتسمية الإسلامية للمكان) دلالةٌ عظيمة، إذ وثّق النَصُّ التوراتيّ التفاصيل الدقيقة لعملية الشراء مستخدمًا مصطلحات قانونية لا لُبس فيها، ولم يكتفِ بذكرها في نصٍّ "حَييّ ساره" فحسب، بل ذَكَرَها ثلاث مرّات لاحقًا في سفر التكوين، بالصيغة القانونية الدقيقة ذاتها في كلّ مرّةٍ. ففي نصّ "حَييّ ساره"، وتحديدًا في الآية السابعة عشرة من المقطع الثالث والعشرين من سفر التكوين، تَرِدُ هذه التفاصيل الدقيقة عن المغارة: "فَوَجَبَتْ ضَيْعَةُ عِفْرُونَ، الْمَعْرُوفَةُ بِالْمُضَاعَفَةِ الَّتِي بِحَضْرَةِ مَمْرَا، الضَّيْعَةُ وَالْمَغَارَةُ الَّتِي فِيهَا، وَجَمِيعُ الشَّجَرِ الَّذِي فِيهَا وَفِي جَمِيعِ تُخُومِهَا مُسْتَدِيرًا". ثُمَّ يعود النصّ التوراتيُّ لذكر هذه التفاصيل ثلاث مرّاتٍ لاحقًا، وذلك في الآية التاسعة من المقطع الخامس والعشرين من سفر التكوين، وفي الآية الثلاثين من المقطع التاسع والأربعين من سفر التكوين، وفي الآية الثالثة عشرة من المقطع الخمسين من سفر التكوين.

ومن تلك الفقرات نقرأ مثلًا وصيّة يعقوف/يعقوب على فراش الموت، مخاطبًا أبناءه، كما ورد ابتداءً من الآية التاسعة والعشرين وانتهاءً بالآية الثانية والثلاثين من المقطع التاسع والأربعين من سفر التكوين:

"ادْفِنُونِي مَعَ آبَائِي، فِي الْمَغَارَةِ الَّتِي فِي الضَّيْعَةِ الْمُضَاعَفَةِ، الَّتِي بِحَضْرَةِ مَمْرَا فِي بَلَدِ كَنْعَانَ، الَّتِي اشْتَرَاهَا أَفْرَهَامُ مِنْ عِفْرُونَ الْحِثِّيِّ مَقْبَرَةً. ثُمَّ دُفِنَ أَفْرَهَامُ وَسَارَه زَوْجَتُهُ، ثُمَّ دُفِنَ يِتسحَقُ وَرِفْقَه زَوْجَتُهُ، وَثُمَّ دَفَنْتُ لِيئَه. شِرَاءُ الضَّيْعَةِ، وَالْمَغَارَةِ الَّتِي فِيهَا، مِنْ بَنِي حِيثَ".

بلا شكّ، ثمّة أمرٌ عميقٌ يُشير إليه هذا التكرار، فلو لم تكن لهذه التفاصيل دلالة بالغة، لما أعادت التوراة مرّاتٍ عديدةٍ ذِكر الموقع الدقيق للحقل، واسم الشخص الذي اشتراه منه أفرهام.

ومباشرةً بعد قصّة شراء الأرض، نقرأ في الآية الأولى من المقطع الرابع والعشرين من سفر التكوين: "وَلَمَّا شَاخَ أفرهام، وَطَعَنَ فِي السِّنِ، بَارَكَهُ اللهُ فِي الْكُلِّ". فنشعر، مرّةً أخرى، وكأنّ النصّ التوراتيّ يتحدّث عن خاتمة حياة. لكنّنا، نُفاجأ مُجدّدًا حين نُدركُ أنّ الآية هي مُقدِّمةٌ لبداية جديدة، إذ يُطلق أفرهام مبادرةً جديدة، تتمثّل هذه المرّة في العثور على زوجةٍ لابنه يتسحَق/إسحَق، الذي كان عمره حينها لا يقلّ عن سبعةٍ وثلاثين عامًا.

ولأنّ أفرهام لا يترك شيئًا للمصادفة، فإنّه لا يتوجّه بكلامه إلى ابنه مباشرةً، بل إلى أكثر عبيده إخلاصًا، ذاك الذي سلّمه أمر بيته، " ...لِعَبْدِهِ شَيْخِ مَنْزِلِهِ، الْمُسَلَّطِ عَلَى جَمِيعِ مَالِهِ..."، فيطلب منه، كما ورد في الآية الرابعة من المقطع الرابع والعشرين من سفر التكوين أن يعود "إِلَى بَلَدِي وَمَوْلِدِي تَمْشِي"، ليبحث هناك عن المرأة المناسبة. فقد أراد أفرهام زوجةً لابنه تُشاركه إيمانَهُ ذاتَهُ وطريقَةَ حياته. ولم يُصرّح أفرهام بضرورة أن تكون الزوجة من عائلته، إلّا أنّنا نلمح هذا الافتراض بين السطور.

وكما هو الحال في قصّة شراء الحقل، فإنّ السرد هنا مُفصَّلٌ على نحوٍ غير مألوف في التوراة، حيث يتمّ إيراد الحوارات جميعها. وهذا يُشكّل تضادًّا صارخًا مع حادثة التضحية بيتسحق المذكورة في التوراة، حيث كادت أن تُخفي تمامًا أفكار أفرهام ومشاعر يتسحَق. أمّا في هذه القصّة، فتُذكَرُ جميع التفاصيل. ويَلفِتُ الأسلوب الأدبيّ نظرنا مجدّدًا إلى أهمّيّة ما يحدث، دون أن يُفصح عن ماهيته بوضوح.

لكنّ تفسير ذلك بسيطٌ، وإن كان غير متوقّع: فطوال سيرة أفرهام وساره، كان الله عزّ وجلّ يعدهما بأمرَين اثنين، وهما الذُّرّيّة والأرض. وقد تكرّر الوعد بالأرض سبع مرّات، كما في قوله عزّ وجلّ الوارد في الآية السابعة عشرة من المقطع الثالث عشر من سفر التكوين: "قُمْ فَامْشِ فِي الْأَرْضِ، طُولِهَا وَعَرْضِهَا، فَإِنِّي لَكَ أُعْطِيهَا". وقد تكرّر الوعد بالنسل أربع مرّات، منها ما ورد في الآية الثانية من المقطع الثاني عشر من سفر التكوين: "وَأَصْنَعُ مِنْكَ أُمَّةً كَبِيرَةً... "، وكما ورد في الآية السادسة عشرة من المقطع الثالث عشر من سفر التكوين: "وَأُصَيِّرُ نَسْلَكَ كَتُرَابِ الْأَرْضِ..."، وفي الآية الخامسة من المقطع

الخامس عشر من سفر التكوين: "فَأَخْرَجَهُ إِلَى الْخَارِجِ، وَقَالَ لَهُ: الْتَفِتْ إِلَى السَّمَاءِ، وَالْتَمِسْ إِحْصَاءَ الْكَوَاكِبِ..."، وكما ورد أخيرًا في الآية الخامسة من المقطع السابع عشر من سفر التكوين: "وَيَكُونُ اسْمُكَ أَفْرَهَامُ، لِأَنِّي جَعَلْتُكَ، أَبَ كَثِيرٍ مِنَ الأُمَمِ".

ورغم كلّ هذه الوعود الإلهيّة، فحين ماتت ساره، لم يكن في حوزة أفْرهام شبْرٌ واحدٌ من الأرض يمكن أن يدعوه ملكًا له، ولم يكن له من الذريّة إلا ولدٌ واحد هو يتسحَق الذي لم يكن قد تزوّج بعد. فلا الوعد بالأرض كان قد تحقّق، ولا الوعد بكثرة النسل، ولهذا فُصِّلَت القصّتان الرئيسيتان في نصّ "حَيَيّ ساره"، وهما شراء الأرض والعثور على زوجة، بشكلٍ غير مألوفٍ في التوراة، فكأنّ السرد يُبطئ من وتيرته، ليضمن أن نلتفت إلى المغزى ولا نغفل عنه.

نعم، يُقدِّمُ الله عزّ وجلّ لنا الوعودَ، لكن علينا نحن أن نعمل من أجلِ تحقيقِها. فقد وعد اللهُ أفْرهام بالأرض، لكن كان على أفْرهام أن يشتري الحقل الأوّل. ووعده بكثرة النسل، لكن كان على أفْرهام أن يعثر لابنه على زوجةٍ تُشاركه الحياةَ في ظلّ العهد ليكون لأفْرهام، كما نقول اليوم، "أحفاد يهود".

فحتى مع وجود الوعود، لا ينجز الله عزّ وجلّ كلَّ شيءٍ بمفرده. فمن خلال الفعل الإلهيّ الذي قلّص الله عزّ وجلّ فيه نوره، ليخلق لنا حيّزًا ومساحةً نكون فيها أنفُسَنا ونكون على طبيعتنا، وهو الفعل الذي يُعرَف بالعبرية باسم "تْسِمْتْسُوم"، يُلقي اللهُ إلينا بالمسؤوليّة، ويُفوّض إلينا السلطة؛ فلا نبلغُ إنسانيّتَنا الكاملة إلا حين نمارس هذه المسؤوليّة ونعمل بها. لقد أنقذ الله عزّ وجلّ نوح من الطوفان، لكنّ نوح هو الذي بنى الفُلكَ (السفينة) بيديه، ومنح اللهُ بني يسرائيل الأرض، لكنّهم اضطرّوا للقتال من أجلها. فالله عزّ وجلّ يمنحنا القوّة، وعلينا نحنُ أن نعمل من أجلِ تحقيقِها. ولا يَكْمُنُ تغيير العالم وتحقيق مصيرنا والغاية من وجودنا في ما يفعله الله من أجلنا، بل في ما نفعله نحن من أجل الله.

إنّ هذا ما يُدركه القادة الحقيقيّون، وهذا تحديدًا ما جعل أفْرهام أوّل قائدٍ في التاريخ اليهوديّ، فالقادة لا ينتظرون أن تحدث الأمور من تلقاء نفسها، بل يُمهّدون الطريق ويهيّئون الظروف لتحقيق مقاصد الله عزّ وجلّ. وهم لا يتركون للرياح مهمّة تحريك سفنهم، بل يأخذون هم زمام المبادرة ويشرعون في الفعل، حتى لو كانوا في شيخوختهم، كما كان أفْرهام في نصّ "حَيَيّ ساره". ولعلّ أعجب ما في الأمر، أنّه بعد أن يفرغ أفْرهام من العثور على زوجة لابنه، يتبيّن في المقطع التالي مباشرةً أنّه تزوّج من جديد، وأنجب ثمانية أولاد آخرين. ومهما كان تفسير ذلك (وهناك العديد من التفسيرات، وأكثرها ترجيحًا هو أنّ زواجه يوضّح كيف أصبح "أَبَ كَثِيرٍ مِنَ الأُمَمِ")، فإنّ الرسالة الأوضح هي أنّ أفْرهام ظلّ شابًا في روحه، تمامًا كما بقي موشيه/موسى أيضًا شابًّا في روحه، وذلك كما ورد في الآية السابعة من المقطع الرابع والثلاثين من سفر التثنية: "...لَمْ تَدْمُسْ عَيْنُهُ وَلَمْ تَزُلْ رَطُوبَتُهُ".

فعلى الرغم من أنّ العمل يستهلك طاقتنا، فإنّه يُجدّدها أيضًا. ولو نظرنا إلى نوح في شيخوخته، وأفْرهام في شيخوخته، لرأينا بينهما بَوْنًا شاسعًا.

وربّما تكون الرسالة الأعمق في هذا النصّ أنّ الوعود الكبرى، كالوعد بالأرض وبالنسل الذي لا يُحصى، تُصبِحُ حقيقةً من خلال بداياتٍ صغيرة. فالقادة يحدّقون إلى البعيد، راسمينَ ملامح المستقبل، لكنّهم يُدركون أيضًا أنّ طريقًا طويلةً تربِطُ بين الحُلم وتحقيقه، وأنّ هذه الطريق لا تُقطَع دفعةً واحدة، بل خُطوةً إثر خطوة، ويومًا بعد يوم. فلا طُرق مختصَرة تشبه المعجزات نحو تحقيق الأمل المنشود، وحتى إن وُجدَت، فلن تكون مجديةً؛ لأنّها ستُفضي إلى إنجازٍ يشبه يقطينة النبيّ يوناه/يونس ،التي نمت في ليلة، ثم ذبلت وماتت في ليلة.

لقد اقتنى أفْرهام في حياته قطعة أرضٍ واحدة، وأنجب ولدًا واحدًا سيحمل العهد من بعده، لكنّه لم يشتكِ، ولم يتذمّر. بل ماتَ بطمأنينةٍ ورضى، لأنّه عَلِم أنّه وضع البذرة، وترك للأجيال القادمة أساسًا يُمكنهم البناء عليه. فكلّ تغييرٍ عظيم هو ثمرةُ عملِ أكثر من جيل واحدٍ، ولن يعيش أيٌّ منّا ليرى الثمرة الكاملة لجهوده.

يرى القادة الهدف، ويبدؤون الرحْلَة، ليتركوا في النهاية خلفهم من سيُكمل الرحلة على الدرب، وهذا وحده يكفي ليمنحَ الحياةَ لمسةً من الخلود.

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*
Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University and the generous donation of Mr. Myron Joshua from Kfar Etzion*